

الأديب و المُفكّر الرَّاجِل رَمَضانَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَأَوْنَدَ



الإِنسان العربي الجديد



تراثنا الديمقراطي 1

في تاريخنا الحديث محاولة جادة لإثبات أن المعركة التي يخوضها إنسان أو فريق من الناس هي معركة من أجل الحرية والديمقراطية أو التقدّم. إنّ أحداً من البشر لا يجرؤ على القول بأنّ معاركه هي من أجل المعارك وحسب. وذلك أنّ الإنسان قد حظر على تبرير العنف في تصرفاته تبريراً يرضى به الضمير ويغزو به العقول والأفئدة. والمحاولة هذه ليست بنت العصر الحديث وحسب وإن كانت في عصرنا اليوم أشدّ بروزاً وأكثر إلحاحاً على توسّل المبررات القانونية والأخلاقية لتحقيق الأغراض المطلوبة.

والملاحظ أن ملاك الأمر كله في القرن العشرين وفي الزحام العنيف الذي يواجهنا في لقاءات الدول والشعوب والأفكار يعود إلى شيء واحد هو المنادات بتدعيم الديمقراطية التي تهب الإنسان الفرد حقه الكامل في الاستمتاع بحريته والتصرف في ضوء خطة التنوير التي هي غرض كل حضارة من الحضارات البشرية.

فالديمقراطية هي مادة المناقشة ونبوع المناظرة ومصدر كل المواقف. بل هي التي دفعت ضمير العالم إلى خلق مؤسساته وهيئاته الدولية لتكون في خدمة المعاني الديمقراطية منعا للظلم وردعاً للعدوان وكبحاً لجماح الطامعين وتوزيعاً أقرب ما يكون إلى العدل لجهود العاملين ونتاج عرق الجباه عندهم..

وطبيعي أننا لم نفرّد هذه الحلقة لبحث قيمة هذه المؤسسات الدولية واتخاذ مواقف دفاعية أو هجومية منها ولكننا أفردنا هذه الحلقة بالذات لنقول أنّ في وسع الإنسان العربي الجديد الذي يبحث عن ذاته ويسلط الضوء على مصادر الحرية والديمقراطية في تراثه، أن يعرف الدنيا كلها في أن تراثه من الديمقراطية هو التراث الأكمل والأجمل والأنبل، وأنّ استجابته للكوارث التي أنزلت به في العقود الأخيرة من هذا القرن العشريني يجب أن تنطلق من فهم صحيح لتراثه ولحتواه الحقيقي الذي يقيم الحرية الإنسانية ويعين لها مكانتها الحقيقية في جملة ما عينه من قيم الخير والحق والعدل والمعرفة والكرامة.

نحن نشعر أن الإنسان العربية الجديد قادر على استرداد المبادرة في معركة الحياة وكفاحه من أجل التقدم وحقه في إبراز المنجزات الحضارية التي يتميز بها تراثه منذ خرج هذا التراث إلى الدنيا قوة غالبية معلمة وموجهة.

فما هي أبعاد الديمقراطية التي يشعر الإنسان العربي الجديد جزء من كيانها وقطعة من تراثه الحضاري؟ هل هي تلك التي يتردد الحديث عنها في أجهزة إعلامية أجنبية؟ أم هي شيء آخر؟ وهل تقبل الديمقراطية التي تشيع روحها في تراثنا الحضاري تلك المتناقضات الصارخة بين عدوان واقع وشعارات ديمقراطية نظرية تمتلىء بها أنهار الصحف أو تتردد في الإذاعات وعلى شاشات التلفزيون الأجنبية.

الجواب عن هذه الأسئلة مشروط بخطوتين. خطوة تعريف الديمقراطية ثم خطوة تاريخ المراحل التي اجتازتها هذه الديمقراطية بالذات.

أما تعريفها فهو يتلخص في العبارة التالية: إنها النظام الذي يوفر الحرية للمواطنين.

وأما تاريخها فقد يدهش المستمعون حين يعلمون أن الديمقراطية عند اليونان والرومان القدماء وعند الأوروبيين بعد النهضة الحديثة لم تنبع من إيمان أصحابها بحق الإنسان الطبيعي في الحرية والكرامة بل هي تدبير تفرضه قوة قاهرة وتطورات اجتماعية اقتصادية ترتفع بها طبقة بعد طبقة من أبناء المجتمع الواحد. فتتسع الحقوق الديمقراطية لتشتمل على أبعاد جديدة وتضم إليها عناصر جديدة كلها اجتمعت لهذه العناصر أسباب القوة والمنفعة.

إذن فالديمقراطية عند اليونان والرومان والغربيين المحدثين هي ديمقراطية الأمر الواقع. وهي بعبارة أخرى موقف لا ينبع من إيمان بكرامة الإنسان كإنسان بل من التسليم بوجود طبقة مجتمعية جديدة قوية فرضت نفسها على طبقات سابقة.

أما اليونان فقد حصراً الحقوق الديمقراطية بعدد معين من القبائل ثم لم يسلموا بحقوق البحارة إلا بعد أن فرض هؤلاء البحارة أنفسهم على أثينا بانتصارهم على الأسطول الفارسي في معركة سلايس البحرية. مع العلم أن أرسطو الفيلسوف اليوناني وأستاذه أفلاطون لم يجدا ضيقاً في تصنيف الناس بين أحرار وعبيد واعتبار العبيد آلات ناطقة محرومة من كل حق إنساني.

هذه الديمقراطية العنصرية إذا صح التعبير وهي المقصورة على فئة معينة من الناس تتميز بقوة اقتصادية وسياسية هي وحدها التي عرفها تاريخ الحضارة اليونانية اللاتينية منذ القرن الثامن قبل الميلاد حتى انهيار الامبراطورية الرومانية.

وهي هي نفسها التي عرفها الغرب الأوروبي منذ عصر النهضة. أنها لم تصبح قانوناً في حياة شعوبه إلا في أوقات متفاوتة وإلا تحت ضغط الحاجة المادية الى الطبقات الجديدة التي كانت محرومة من قبل.

يكفي أن نتذكر من بين عشرات الأمثلة أن الحقوق الديمقراطية لم يعترف بها للعمال الزراعيين في الجزيرة البريطانية إلا عام 1867 بينما تأخر هذا الاعتراف بالنسبة للعمال الزراعيين إلى ما بعد عشرين عاماً تقريباً. ثم تأخر أكثر فأكثر بالنسبة للمرأة حتى أوائل هذا القرن.

فالديمقراطية هناك إذن ليست عنوانا على إيمان أصيل بكرامة الإنسان بل هي حصيلة الصراع المادي وحسب. فهي لم تبرز مرة واحدة ولم تصبح حقيقة مجتمعية عند أول خطوة. أما ديمقراطيتنا نحن المسلمين. فهي عالم آخر ودنيا جديدة. إنها تلك النابعة من الاحترام المسبق لكرامة الإنسانية قررتها الآية القرآنية الكريمة.

" وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ " وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ..

وكان موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الشكوى التي حملها إليه أحد أبناء مصر على ولده عمرو بن العاص حاكم مصر هو الموقف المدهش العجيب الذي يسلط الضوء على ما حققته دعوة الحرية في نفوس الملايين فجعلت الكبير ينحني أمامها كما ينحني الصغير سواء بسواء.. ثم كانت قولة عمر بن الخطاب تعليقا على العقوبة التي أنزلها بولده عمرو بن العاص وكاد ينزلها بعمرو نفسه لولا شفاعة الشاكي به "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟" .. هذه المقولة هي التي أعطت الحرية محتواها الإنساني بعيداً عن الاعتبارات المادية وأشياء المقاييس العلمية العاجزة أمام نفحات الروح وأطراح الوجدان ومنجزات الرسالة الدينية المعجزة. أيها المستمعون الكرام..

إننا إذ ننادي بأعداء الإنسان العربي الجديد على الصورة التي حققتها دعوة الإسلام إنما نفعل ذلك اعتقاداً منا بأن الاستجابة الوحيدة والممكنة التي يواجه بها هذا الإنسان المرتقب التحديات الموجهة إليه من الخارج. هي حصيلة العودة إلى ينابيع أمته. وأصول حضارته ووحدة شخصيته وإلى المواقف الإنسانية التي أثبتت لأول مرة في التاريخ ولآخر مرة، أن المنطق المادي الذي يهبط بالإنسان إلى مستوى العلاقات المادية الجامدة أو إلى مستوى الميكانيكية الحيوانية التي تتحول بها إنسانية الإنسان إلى أخلاقية الغابة أو رتبة النكران المادي الحتمي، هو منطق متخلف غبي. منطق عاجز عن إدراك الامتياز الذي يتمتع به الإنسان في نظر العقيدة الإسلامية الشاملة. الامتياز الذي فضل به الإنسان على كثير من خلق الله تفضيلاً. ويأتي في مقدمة ما فضل الإنسان عليه كلّ السماوات والأرض وما بينهما.

إن هذا الامتياز الذي تأتي الحقوق الديمقراطية مدماكاً من مداميكه هو تقييم للإنسان أي إنسان.. أكان مسلماً أو كتابياً أو حتى وثنيّاً، ذلك أنه لا إكراه في الدين ولا تمايز في اللون ولا تنازع في العقيدة. "لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ " وما عليك هداهم.. ولكن الله يهدي من يشاء..

هذه الحرية التي تمنحها ديمقراطية الإسلام لكلّ إنسان لا تخضع لوضع اقتصادي ولا لتطور صناعي ولا لتغيير في العلاقات السياسية بل هي حق للإنسان. حق فرضه الله له بغض النظر عن دينه وتفكيره واسرار نفسه.

إن هذه الحرية الديمقراطية هي وحدها ينبوع الذي يستمد منه الإنسان العربي الجديد روح كفاحه ومبرر تضحية والدافع الأكيد إلى العمل من أجل حماية الكرامة الإنسانية. ولعل أول ما يبادر إلى حمايته في منطق حياتنا العملية هو كرامتنا التي يتحداها عدوان الصهاينة وتنتهك حرمتها أطماع الطامعين.

إن المسلم حين يقاتل ويعمل لا يفعل ذلك في ضوء الدفاع عن طبقة الاجتماعية بل متأثراً بالرسالة الشاملة التي حققت وحدته وأفقدته من قلقه الداخلي وحالت دون انفصام شخصيته هذا الانفصام الذي صنعه تيارات الفكر الأجنبي ودعاوى المقلدين الذي ينقلونه إلينا على طريقتهم الببغاوية القردية.

أفلا تجدون معنا أن إحياء تراثنا الديمقراطي الإسلامي هو واحد من الشروط التي تشترطها عملية إعداد الإنسان العربي الجديد؟

فإذا كان الأمر كذلك فإن رجاءنا كبير في أن نسلط الضوء على شرط آخر من شروط إعداد هذا الإنسان العربي في رجعته إلى الإسلام وثقافته الإسلامية في حلقة قادمة إن شاء الله.